حَبَّةُ خَرْدَل

الأب نقولا وهبة

قصة قصيرة

قرعَ باستعجالٍ على بابهم الحديدي وصاح:

- عمي إبراهيم... عمي إبراهيم!

- أين العم إبراهيم؟ سأل زوجته بتلهف.

- لقد خرجَ منذ قليل. أخذ البذور وذهب إلى البستان.

فعاجلَ راكضاً باتجاه البستان حاملاً على شفتيه كثيراً من الكلام، وفي قلبه الكثير من الغم. وما بين ضبابٍ ينقشع وشمسٍ تلتمع لاح ظل فلاحٍ عجوزٍ ينثرُ البذور بحرصٍ فوق التربة اليانعة.

- عمي إبراهيم! عمي إبراهيم! آه ها أنت أخيراً؛ كيف حالك؟

- نشكر الله... وكيف حالك أنت؟

- حالي... هه هه... آخ يا عم، إني متضايق وغاضب.

- خيرٌ إنشاء الله؟

- أي خير؟ لقد كسروا قلبنا جميعاً. آه... وبالتأكيد قلبك أنت... انتظر... أنا لا أرى وجهكَ مكفهراً ولا أشعر بأنّك مضطرب! ألم تعرف ما حصل؟

- بخصوصِ ماذا؟

- إيه يا عمي إبراهيم... كل الناس صارت تعرف. حتى إن ابن أخي اتصل بي من أمريكا وأرسل لي البيان.

- أتقصدُ البيان البطريركي؟

- نعم يا عم. ويا أسفاه... خلال بضعة شهور يحدث كل هذا؟ وأين؟ في كنيستنا المقدسة؟

- الكنيسة سفينةٌ تشق طريقها عبر بحرٍ هائجٍ... هذه المرة يبدو أن العاصفة قوية... فلا بأس علينا إن دخل قليلٌ من المياه إليها.

- قليلٌ من المياه! ماذا؟ قليل؟ ههه... يا عم إننا نكاد نغرق.

- لا يضطرب قلبكَ هكذا... طالما أن المسيح فيها فلن تتزعزع... وهل تعتقد مثل غيرك أن السفينة تعوم بسبب قوتها ومناعتها الخاصة؟ إنها تعوم وتسير فقط لأن سيدها فيها... حتى ولو تحطمت أشرعتها وملأتها المياه... فهو وحده من يحملها ومن يقودها ومن يوصلها إلى بر الأمان.

- إيه... دائماً تقول هذا... ولكن ما يحدث كبيرٌ وكبيرٌ جداً... مرةً راهبٌ موهوبٌ يُتَّهم بالتحرّش، وأخرى أسقفٌ يسرق الأموال... مطرانٌ يتهمونه بأشياء فظيعة، ومعتمدٌ بطريركي في أوروبا يسرق الكنيسة ويبيع إيمانه. تخيّل! يبيع كنيسته وإيمانه.

- الله يرحمنا.

- كنّا نعتقد أن يهوذا قد شنقَ نفسه... لكن في كل يومٍ نرى يهوذا آخر.

- آخ يا بني... الله يرحمنا. هدِّئ من روعِك ولا تيأس وتكتئب... تعال... تعالَ انثر معي هذه البذور ولنتكلم قليلاً...

- يا عمي إبراهيم، صدقني، لم يعد لي رغبة في التفكير بهذا الأمر... لم يعد لدي حماسةٌ أن أذهب إلى الكنيسة... أين سأخفي وجهي من أولئك المتحذلقين الذين يهاجمون الإيمان... لقد أعطيناهم مادةً دسمةً ليهزؤوا بنا ويشجّعوا الناس على الإلحاد.

- لا تخفْ... "خرافي تعرفني وتميِّزُ صوتي". هكذا قال يسوع.

- يا عمي... إن كان هؤلاء الناس المتعلّمون والصالحون يفعلون هكذا أمور، فماذا سيفعلُ الخطأة أمثالي؟

- كل شيءٍ سيؤول للخير... دعكَ من هذا الكلام... تعال ننثر بذور الخردل هذه. هيا ساعدني! خذ... أمسك هذه البذور وارمها بحرصٍ داخل أثلام الأرض.

- إييه، أنا أحدثكَ عن وضع كنيستنا الحبيبة وأنت تريدني أن أزرع الخردل؟

- نعم... فبذار الخردل الصغيرة والتي لا يتعدى قطرها اثنين ميليمتر ستصبح نباتاتٍ قوية بنعمة الله. ويسوع المخلص علّمنا أن إيماناً بحجمها يستطيع أن ينقل الجبال. لنصلِّ علَّ جبلَ الهمِّ هذا ينتقل عن قلبكَ.

- نحن أناسٌ بسطاءُ يا عم. وورثنا إيماننا عن أهلنا... وبرغم الحرب والفاقة من جهة، وسبي العقول واستباحة الأخلاق من جهة أخرى إلا أننا لم ننسَ إيماننا البسيط... ولكن يبدو أن غيرنا قد نسيه! انظر... فمن تعلّم الإيمان في أكبر الجامعات قد أنكره. إنهم غير مستحقين لهذه المهمة وأعداءٌ للكنيسة... وهذا بالضبط ما سأقوله اليوم في اجتماع الرعية.

- حسناً، تستطيع أن تقول ما تشاء. ولكن فكّر معي قليلاً! انظر إلى حبات الخردل هذه التي نزرعها، ماذا ستقول إن عُدتَ إلى الحقل بعد عدة أشهرٍ ولم تجد النباتات قد نمت، هل ستقول أنَّ السببَ هو البذور؟

- لا لا (ممتعضاً) بالتأكيد لا... هذا أعرفه... المشكلة في الأرض! البذرة صالحة ولكن هم كانوا أرضاً رديئة.

- ربما، ولكن هذا ليس صحيحاً دائماً.

- ماذا تعني؟

- قد ترمي بذرةً صالحة في أرضٍ صالحة، ولكن مع هذا لا تنبتُ الشجرة.

- لماذا؟

- قد تكمن المشكلة في الرعاية. فبدون عناية ستموت البذرة وتبور الأرض. فالعناية جزءٌ لا يتجزأ من عملية الزراعة.

- ماذا تقصد؟

- لتفهم ما أقصد أجبني أولاً: أية وظيفةٍ أُسندت إلى آدم في جنة عدن؟

- أن يعملَ في الجنة ويحفظها؟ أليس كذلك يا عمي إبراهيم؟

- نعم... ولكن هل تعتقد أن أشجار الفردوس كانت تحتاج إلى عناية ورعاية... ألم توجد الجنة تحت رعاية الله... ألم يوجد فيها نهر منقسمٌ إلى أربعة فروعٍ؟ ألم يكن الضباب كلّ صباح يترك خلفه الندى ليرويها؟
- نعم... معكَ حق... إذن لماذا طلب الله من آدم أن يعمل في الجنة ويحفظها؟
- لأنه وكيل الله على خليقته، وعليه أن يقوم بوكالته جيداً ويعمل عمل الله على الأرض. وعلى كل وكيلٍ أن يعتني بمن هم تحت وصايته، وإلا لم يكن وكيلاً أميناً.
- يعني يا عمي إبراهيم... المشكلة ليست في البذرة ولا في التربة بل في الوكيل الذي أهملَ السقاية والعناية؟
- في كثير من الحالات الجواب هو نعم. نحن نحتاج إلى رعاية للرعاة. رعاية بقدر حبة الخردل. وإلا سنبقى نعالج العَرَض ونتغافل عن السبب.
- رعايةٌ للرعاة؟ وبقدر حبة الخردل؟ أنا لم أفهم.
- كل نبعٍ لا يغتذي يَجفّ، وكل شيءٍ تأخذ منه ولا تملؤه يخفّ.
- رعاية الراعي ليرعى! هه، هذا شيءٌ جديد... هل تستطيع أن توضِّح لي فكرتَك؟
- سأحاول، ولكني عِدني أولاً أن تقول ما ستسمعه في اجتماع الرعية اليوم، وأن تزيد عليه ما ينقصُ بسبب ضعفي وخطيئتي.
- أعدك يا عمي إبراهيم. (قالها متحمساً) قل لي فقط!
- نحن لدينا سرٌ عظيمٌ يدعى التوبة والاعتراف. هو سرٌ جوهريٌ في الكنيسة. وبدون ممارسته سنبقى مرضى.
- نعم هكذا يقول القديس اسحق السوري: المريض الذي يعترف بمرضه شفاؤه هيّن، أما القلب القاسي فتكثر أوجاعه، والمريض الذي يخالف الطبيب يزيد عذابه.
- نعم. زِدْ على هذا أن أول كلمةٍ نادى بها الرب يسوع كانت: توبوا، فقد اقترب ملكوت الله.
- نعم. في إنجيل القديس مرقس.
- أحسنت. فإن كانت الكنيسة وآباؤها القديسون ينصحون المؤمنين بشدة بممارسة سر التوبة والاعتراف لأنه أساسيٌ ولازمٌ لخلاصهم، وَجَبَ على الكنيسة ضمن هذه الظروف أن تجعل هذا السر إلزامياً بالنسبة لرعاتها والعاملين فيها.
- أتعني أن تسُنَّ الكنيسة قانوناً يلزم كلَّ رعاتها بأن يمارسوا سر التوبة والاعتراف كما سر الإفخارستيا؟
- نعم. فالرعاة أيضاً بشر. وهم كغيرهم بحاجة إلى رعاية روحية. هم ليسوا معصومين عن الخطأ. وقد يسقطون بدون الإرشاد مثل أوراق شجرٍ خريفية. الخطيئة تعمينا عن رؤية الحق، وإن لم نتحرر منها بالإرشاد والتوبة سيَصُحّ فينا القول الإنجيلي: أعمى يقودُ أعمى.
- إذاً لذلك يحثّنا القديس يعقوب بأن نعترف بعضنا لبعضٍ بالزلات ونصلي لبعضٍ لكي نُشفى.
- أصبت. فإن اعترفنا بخطايانا فهو أمينٌ وعادلٌ أن يغفر خطايانا ويطهرنا من كل دنس.
- فهمت يا عمي إبراهيم... يجب جعل سر الاعتراف إلزامياً للعاملين في الكنيسة من أعلى الهرم إلى أسفله، ومراقبة حسنِ تطبيق هذا الأمر. هذا سيدعم الرعاة روحياً ويساهم في تجديدهم الداخلي. هذه الفكرة لن

تروق للبعض لأنها خارج نطاق التفكير المعتاد. ولكن على كلٍّ حال، لقد سجلت هذا في مدونتي. هل من نصيحةٍ أخرى؟

- الأمرُ الثاني الذي سأحدِّثكَ عنه هو شيءٌ خطيرٌ أطلق عليه مخلصنا لقب "الرب". هل تعرف ما هو؟

- نعم. إنه المال. لقد قال يسوع: لا تستطيعون أن تعبدوا ربَّين.

- يقف المال كشبحٍ خفيٍ وراء الكثير من الأزمات في العائلة والمجتمع والكنيسة.

- نعم. كل شيءٍ تقريباً يتحكم به هذا المارد اللعين. حتى الحروب تنشأ بسببه. إنه ربٌ لكثيرين.

- لذا علينا في الكنيسة أن نرجع هذا المارد إلى قمقُمِه، وأن ننتزعَ منه قوته التي يتسلط بها على كثيرين.

- كيف يمكننا هذا. فالمال ربٌ قادرٌ على دغدغة الأحلام البشرية.

- يُنصِّب المال نفسه سيداً على حياةِ البعض، لأنه يستغلُّ خوفهم من المستقبل. وهذا ما يحدث في حالِ كثيرٍ من الرعاة. ففي الكثير من الأبرشيات لا يوجد حتى الآن راتبٌ واضحٌ للكهنة ولا تقاعدٌ يضمن شيخوخةً مكرّمة. وهذا الخوف قد يستعبد المرء، فيبدأ يكدِّس الأموال بحجة ضمان آخرته، ومن ثم يدغدغ المال شهوته فيقيده بها.

- وما الحل أمام هذه المشكلة؟

- إن كان المال يُوقِعُ بنا بسببٍ من خوفنا، فإنَّ استبدال الخوف بالطمأنينة في قلب الراعي سيجعله يقف صنديداً في وجه التجربة. لذا فإن وضوح كيفية حصول الراعي على المال، وتحديد راتبٍ مناسب وتقاعدٍ مقبول يضع الراعي في البيئة المناسبة لمواجهة تجربة حب المال.

- هذا صحيح... إنه مطلبٌ بديهي. سأكتب هذا في مدونتي: راتبٌ محترم، تقاعدٌ مكرَّم وضمانٌ صحي . هذا طبيعي في عصرنا.

- ولكنه ليس طبيعياً في كنيستنا.

- إذاً لهذا تحدث أحياناً سرقات أو تجاوزات؟

- ليس بسبب هذا فقط، بل بسبب نظام الإدارة المالية البالي. هذا النظام المهترئ يذّكرُ بالفريسيين، نظامٌ يصفِّي البعوضة ويبلع الجمل.

- ههه، يبلع السيارات والأراضي أيضاً.

- ثم لماذا موضوع المال في كنيستنا هو من المحرمات؟ ففي الكنيسة تستطيع أن تناقش عقيدة الثالوث، وتخضع مقاطع الكتاب المقدس لمدارس النقد الحديثة، أما أن تسأل كم تملك هذه الأبرشية من مال، أو كيف يتحمل هذا المطران أو الكاهن تكاليف حياته الفارهة؟ أو كم راتبه؟ فإنك حينئذٍ تتدخل في المحرمات، وربما تُلعن كالهراطقة.

- الحق معك... الويلُ لمن يسأل عن المال... الويلُ لمن تسوّل له نفسه أن يسأل من أين لك هذا. مثل هذا الشخص هو أناثيما وقد سقط في ضلالة آريوس ونسطوريوس.

- أخيراً أريد أن أحدثك عما يُسمى بالحدِّ الأدنى.

- وهل تقصد بهذا كمثل الحدِّ الأدنى لقبول طالبٍ في جامعةٍ معينة؟
- بالضبط. وهو ما سيمونه أحياناً: بمعدّل القبول... وفي العاميَّة بـ"أضعفِ الإيمان".
- حدثني من فضلك. فالموضوع فريد.
- لكل أمرٍ في الدنيا حدٌ أدنى. ودونه لا يكون الشيء أو الأمر مقبولاً. فمثلاً ما رأيك... ما هو الحد الأدنى لبيتٍ صالحٍ للسكن؟
- ليكونَ البيتُ بيتاً يجب أن يكون له أساساتٌ وجدرانٌ ونوافذ وأبواب.
- ماذا عن ألوان الجدران؟
- كلا يا عمي إبراهيم. إن إكساء البيت وألوان جدرانه ونوعية مفروشاته ونظافته هي شأن من يسكنه.
- أحسنت. هذا بالضبط الحدُّ الأدنى.
- وما علاقة هذا بالكنيسة ومشاكلنا؟
- علينا أن نبحثَ معاً وبتحديدٍ عن الحد الأدنى المطلوب من الرعية والراعي روحياً واجتماعياً ومالياً. ما هو المعيار الذي من خلاله نستطيع الحكم على رعية أو مجلس رعية أو راعٍ بأنه يتمم عمله أو أنه يستحق الإشادة أو التنبيه. تحديدُ الحد الأدنى للأداء المطلوب والمتناسب مع هذا العصر، وتعميم هذا الحد على كافة الرعايا - مع مراعاة خصوصيتها- سيسمح بقراءةٍ واضحة لعمل الكنيسة وأفرادها بشكلٍ عملي ودعم المقصّرين وإثابة المخلِصين. هذا أضعف الإيمان.
- ولكن هناك رعايا وكهنة لديهم ظروفٌ خاصة، وأحياناً عقلياتٌ خاصة.
- عقلياتٌ خاصة... ما هذا؟ أما نحن فلنا فكر المسيح. أما إن كانت الظروف في مدينة أو رعية لا تسمح بتحقيق الحدِّ الأدنى، فهذا أمرٌ مبارك. لأنه يتيح للمطران أو الرعايا المجاورة فرصة تطبيق عمل السامري الرحيم. بهذا يتعزز دور التنمية والتكافل بين الرعايا والأبرشيات. فالكاهن الذي يعظ جيداً يساعد بأمر مطرانه أخاه غير الموهوب بهذه النقطة. ومن لديه موهبة في رعاية الشباب وتنظيم المخيمات يدعم أخاه ليصل به إلى الحد الأدنى. وإن تمَّ تطبيق هذا المبدأ لاحقاً بين الأبرشيات، صار من الممكن أن تساعد الواحدة الأخرى بشكلٍ أكثر فعالية، ولا تكتفي بالاهتمام بتنميتها الذاتية.
- كما جاء على لسان الابن الشاطر: هناك يَفضُلُ عنهم الخبز، وأنا هنا أهلكُ جوعاً.
- بالضبط. "وجميع الذين آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كلُّ شيءٍ مشتركاً!"
- أضعف الإيمان! أعجبتني الفكرة. عندها سنكون مثل الجسد الذي تعضدُ فيه الأعضاء بعضها البعض.
- جسد المسيح.
- والبداية: حبَّةُ خردَل.

كتب هذه القصة الأب نقولا وهبة، كاهن الرعية الأرثوذكسية الأنطاكية في فيينا، في الثالث من أيار لعام ٢٠٢٣.